لحـــن الصبـــاح

رواية

محمد ناجى

الناشر

مصر العربية للنشر والتوزيع

الناشر :

دار مصـر العربيـة للنشر والتوزيع

القاهـرة - ص ٠ ب : ٥٧٤٠ هليوبوليس

غـرب - تليفون وفاكس : ٢٥٦٢٢٦٨

١٩ ش اسـلام حمـامات القبـة

القاهـرة - مصر

* طبع من هذه الرواية : ٢١٠٠ نسخة

* الغلاف تصميم الفنان : بهجت عثمان

نطّ عليه وركب صدره ، ثم عصر رقبته بين زند وساعد يده ذات الإصبع الوحيدة وقال له: "خبّرني؛ متى تبيض الإوزة ؟ ". لم ينط بالضبط ؛ وإنما تدحرج إليه من الوضع قاعدا في شقلباظ سريع مثل بهلوانات السيرك فهو بلا رجلين . الرجلان قصتهما الشظايا حتى نهاية الفخذين وطيّرت أيضا راحة اليد اليسرى ، تركت له راحة اليد اليمنى بإصبعها الوسطى وإليتين خشبيتين يزحف على جلدهما اليابس .

كأنه تمرين صباحي يبدؤه عباس الأكتع مع برنامج " لحن الصباح " من راديو الحاجة ويكا . يكون هو قد استقر في مكانه على الرصيف المقابل لدكان ويكا ، واتخذ نوفل مجلسه على بعد أمتار منه . يعجبه اللحن التمهيدي للبرنامج فيفرد ما بقي من طوله ويرقص ، يهز كتفيه ويهشّك بطنه ويترجم اللحن إلى صوتيات شعبية يغنيها :

– شك شك شيكا بم .. بم بم برلم ...

الحاجة ويكا تعرف البقية ، تقول له :

- انهدّ يا عباس واترك الرجل فى حاله .

مع نهاية اللحن يضحك عباس ، يمد فكه الأسفل ويئز مثل طائرة : " إززز.. " ، ثم يعمل شقلباظه المشهور واثبا على صدر نوفل .

ضحك الناس وضحكت الحاجة ويكا ونهرته :

- اتركه .

نوفل راقب الموقف من بدايته بما تبقى له من قدرة على البصر . كان مضطربا لكنه لم يتحرك ، أخفى يده اليمنى المرتعشة داخل جيبه وتابعه بعين كارهة ، ولمّا دهمه عباس طاوعه وانسطح على الأرض ، قاومه فقط بعلامة احتقار على شفتيه . ضحك الأكتع فى اذنه :

- انطق ؛ أريد أن أرى أسنانك .

لم يجاوبه ، وجاهد حتى حوّل وجهه بعيدا . هاص الأكتع وتنطط على صدره :

- بم برلم برلم ...

لما طالت المسخرة طلعت ويكا من دكانها ، عبرت الشارع ورفسته :

- اتركه ؛ سيموت وتروح فى داهية .

أدار وجهه إليها وضحك . من مكانه رأى اللون البصلى محبوكا على الأبيض الحار فى نهاية الساق فضحك . لاحظت الحاجة ويكا فحبكت الجلباب الأسود على ساقيها ورفسته ثانية :

– قم يا نجس .

قام ، أو بالضبط تشقلب عائدا الى مكانه وجلس أمام بضاعته ؛ كتب، أدعية فى حجم الأحجبة وبخور، وعلب عنبر وجوز الطيب ، ومساويك ومسابح . كان جبينه معفرا ، قال لها :

– المكان لايتسع لى وله .

– أرزاق .

– لكن بضاعتنا واحدة .

سندت بطنها بيدها وضحكت :

– بضاعة !!

ضحك معها حتى انقطع نفسه ثم قال :

– له ابن ، وأنا مقطوع من شجرة .

– لا تذكّره بالأحزان ؛ ابنه ضاع فى الكويت .

رفع لها يده ذات الأصبع الوحيدة :

– وأنا أيضا كدت أموت فى الحرب .

تشاغلت عنه ، ولكن عينه ظلت مشغولة بها وهى تنظف الرخامة السوداء فى مدخل الدكان وتنفض التراب عن اللافتة المرفوعة فوق

الباب : " سوبر ماركت العهد الجديد " .

" نوفل تابع الحوار كأنه لايعنيه . قال لنفسه : " ذات يوم سأعملها ويروح في داهية ؛ سأموت تحته واتركه للسجن وللناس يلعنونه ويقولون : قاتل نوفل . سينظر إليه القاضي بعين الغضب الحمراء ، القاضي لايرحم القاتل ولا الزانية ".

سدد إليه نظرة جانبية شامتة ، ولماعبرت نظراته أمام دكان ويكا رآها تنتهي من إفطارها وسمعها تنادي الأكتع :

– تعال ؛ خذ الأكل .

عبر عباس الشارع زاحفا على اليتيه وعاد قابضا بأسنانه على كيس بلاستيك دلقت فيه الحاجة ويكا بقايا الطعام . قالت :

– لك وله .

لما استقر عباس على الرصيف فتح الكيس ، وأشار لنوفل آمرا دون أن ينظر إلى وجهه :

– تعال ؛ خذ لك لقمة .

لنوفل ابتسامة عجيبة تأخذ فيها شفتاه وضع "مؤخرة الإوزة".
فقد تعود طوال عمله كخطّاط أن يزمّ شفتيه ، ومع العمر أصبح فتح فمه أمرا صعبا . وحتى عندما فقد القدرة على الخط لم تنفرج شفتاه بل زادت الحالة عنده ؛ فالمهنة فى دمه ، وأجمل اللافتات التى كتبها فى حياته لاتزال ترف فى الهواء أمام عينيه . أحيانا يعيد كتابة اللافتات المعلقة بعين خياله ، ويتعجب كيف أصبحت الخطوط رديئة إلى هذا الحد .

تمشى الابتسامة فى شفته العليا النحيلة كأنها نبضات كهربائية رعّاشة ، تنتقل ببطء من طرفى الشفة لتتجمع فى المنتصف ، ويكون تمام الإبتسام عنده شفتين متكورتين مثل مؤخرة الإوزة ، وهو الشبه الذى اكتشفه عباس الأكتع ذات يوم فهجم عليه بأزيزه العالى ، وقال له :

– ابتسم يا رجل ؛ أريد أن أرى أسنانك .

كوّر نوفل شفتيه فى وضع مؤخرة الإوزة وهو يرقب عباس

بنظرة جانبية متوعدة شـامتة : " سيسـخر منـه القـاضى والمحـامون والشهود وهو داخل القفص مقصوص الأطراف مثل قرد . سيجلس القاضى فى الشـرفة ويضعونـه فـى القفص وسط السـاحة الواسـعة حتـى يـأتى النـاس مـن تحـت القـوس الحجـرى ؛ يتفرجـون عليـه. سـيضحك الجميـع علـى منظـره وتقذفـه المـرأة المخبولـة بالحجـارة وتلعنه؛ نجس. قرد لئيم يستحق السجن؛ سيبكى ولن يرحمه أحد ".

خشى أن يقرأ الأكتـع أفكـاره ؛ فحـوّل وجهـه عنـه ونظـر إلـى اللافتـة الوحيـدة التـى بقيـت بخـط يـده ولاتـزال مرفوعـة علـى أول الشارع . قال لنفسه : " لولاهـا مـا تحّملـت جـوار الأكتـع اللئيـم " ، ولعن الرّعشة التى جعلته يجلس هكذا على الرصيف . فكر فى أنـه يمكن أن يكتبها الآن بخط أجمـل لـو شـفيت يـده : " سـأكتب واحـدة مثلها بالضبط وأعلقها على بيت القـاضى الأثـرى ، سـأرفعها عاليـا حتى لاتطولها يد " .

لعن اللـه الرّعشـة ، يعـرف أنـه لاشـفاء منهـا إلاّ بمسـبحة مـن الكهرمان ، يتلو اسمه تعالى " الشـافى " بعددحباتهـا ثـم يلفهـا حـول الرسغ فتلقط الرطوبة من العصب . نظر إلى المسابح التى يبيعها ؛ حباتها مخروطة من البلاستيك أو الخشب ، يتفرج عليها المـارة ثـم يُعيدونها إليه فى احتقار . رخيصة وتافهة ، يعرف ذلك ، ولكن من منهم يستطيع أن يشترى مسبحة من الكهرمان أو العقيـق الحـر فـى

هذا الزمان ؟ المشترون لا يفرقون بين مسبحة وأخرى ولكنهم يجادلونه فقط من أجل شلن أو بريزة .

لو صرف التعويض سيكون أول شئ يفعله أن يشترى مسبحة من الكهرمان ، سيشترى أيضا ياقوتة حمراء ، الياقوت بحر من الأسرار . بعدها يستطيع أن يتفنن فى الخط من جديد . تذكر النظرات المستحسنة المتزاحمة حوله فى مواسم الانتخابات ؛ هزّ رأسه محييا كل العيون الناظرة إليه ، وسرى النبض الكهربائى فرسم على شفتيه ابتسامة الإوزة .

مع الحر هبّت سحابة من ذباب ، حطّت على وجهه ويديه . قام، سند وسطه بيده الرعّاشة وحمل بالأخرى صفيحة فارغة ملأها من دكان الحاجة ويكا . استمهلته ويكا وأعطته سيجارة ، ثم سألته عن أخبار ابنه . باضت الإوزة من فم نوفل فتكلم :

– لارجع ، ولا صرفوا لى التعويض .

– اصبر .

– هه .

عاد ، رشّ الماء حول مجلسه ثم وضع السيجارة بين شفتيه وأشعلها .

رآه الأكتع فطار عقله ، عبر الشارع إلى الدكان :

– سيجارتى .

– أهى ضريبة يا أكتع ؟!

– لى مثل ما أخذ ؛ ربك يحب العدل .

ثم ضحك :

– الإوزة باضت ؟

– باضت .

– ورأيت أنياب الكلب ؟

ضحكت وسكتت .

– ماذا قال ؟

– سألته عن ابنه وجاوبنى . مسكين .

– سأظل أطارده حتى ينطق ويكلم نفسه .

– هو يكلم نفسه فعلا .

ناولته سيجارة وأرادت أن تشعلها له فخطف الكبريت وإشعلها بنفسه مستخدما مهارة يده ذات الأصبع الوحيدة . ثبّت مشط الكبريت فى راحته وثنى العود حتى لامس الشطاطة ثم حرّكه فوقها حركة حاسمة وسريعة فاشتعلت النار .

– عباس يقدر على كل شئ .

– لم يبق منك إلا اللسان .

– تخلصت من اشياء كثيرة لاتلزمنى ، خلعتها ورميتها . أما اللسان فهو نصف الرجل .

- والنصف الاخر ؟

ضحك وتأرجح على اليتيه :

- لسان أيضا .

- يا نجس .

تململ فى مكانه فاستوقفته :

- انتظر ياأكتع .

انتظرها حتى خلا الدكان .

- عندى عروسة لك .

- عروسة المولد ؟!

- عروسة ؛ امرأة يا أهبل .

- أضغط على بطنها تنادى : بابا .. ماما ؟

- امش يا متعوس ، لاتضيّع وقتى .

- هئ هئ .

- أنا لا أهزل .

- حلوة ؟

- ملبن .

- أرملة ؟

- بنت .

- سلام عليكم .

- يا ولد تعال ، هى بنت ولكنها فى عمر أمك .

- ليس لى أم .

- كيف ؟!

- هكذا ؛ باضنى غراب على شبّاك مسجد .

انتظرها حتى باعت علبة سجائر وشرحت له :

- كبيرة ؛ كانت تخدم فى بيت طبيب ، ولما انهدّ حيلها طردوها.

- فهمت ؛ كبرت وتريد من يخدمها .

- ليس هذا قصدها وإنما تبحث عن أنيس .

- ولماذا لم تتزوج حتى الآن ؟

- فيها عيب .

- ايه ؟

- لها عين وحيدة .

- أعوذ بالله ، أنا أتشاءم من العور ، سأهرب منها هروب فرغلى من أهل بيته .

- أمّا هى فمتفائله بك ، يعجبها كساحك .

- تعرفنى ؟

- رأتك بعينها العوراء .

دار بأكتافه ربع دوره ومسح صدره بذراعه :

– ما رأيها ؟

– انخبلت ؛ جمالك سحرها .

سكت .

– فكّر .

فكّر فى فتاة البرتقال ، وقال لويكا :

– تلزمنى سيجارة .

أشعل السيجارة بطريقته الخاصة وفكّر فى الأوضاع الحرجة التى يمكن أن تجمع بينه وبين المرأة ، ثم قبض على السيجارة بأسنانه وتشقلب أمام الدكان :

– الأكتع حديد .

لم يستبعد عباس أن يكون قصد الحاجة ويكا هو اللعب بأفكاره، لكنه فكّر فى الموضوع بجد ولام نفسه على أنه لم يطلب رؤية المرأة ، وقال : " سأنتظر ؛ يلزمنى وقت لاختبر صدقها قبل أن أطلب منها ذلك وإلا تحول الأمر إلى مسخرة ".

كان الأكتع مشغولا بأفكاره حين باع نوفل خمس مسابح وخمسة مساويك دفعة واحدة ، اشتراها ريفى وعقد عليها منديله ثم بدأ المساومة فى السعر . كان نوفل قلقا ، عيناه على الأكتع طول الوقت وهمّه أن ينتهى من البيع قبل أن ينتبه له ويتلف كل شئ . ولكن الأكتع لم ينتبه إلاّ بعد أن قبض نوفل الثمن جنيهين كاملين ،

وضعهما فى جيبه ورسم على وجهه ابتسامة الإوزة. هرش عباس رأسه ، وزحف على اليتيه إلى منتصف المسافة بينهما ويداه فى وسطه ثم زعق :

– كل شئ بشلن ؛ مسبحه مسواك عنبر ، أى شئ بشلن .

رجع المشترى خطوتين ونظر إلى بضاعة عباس وتحيّر لما رأى الناس يضحكون . وفجأة تشقلب الأكتع أمامه وصرخ فى وجهه :

– أى شئ ببلاش .

خاف الرجل ؛ أدرك أن فى الأمر ملعوبا فضحك وجرى وهو يتلفَت .

يسكن الأكتع فى شقّ طويل بين بيتين ؛ طوله أربعة أمتار وعرضة متر ، ترك كل بيت نصف متر ليفتح شبابيك على الجوار. لما اكتشفه عباس فرح به واستخدم كل مهاراته فى الجبال فى تهيئته للإقامة . ثبّت عارضتين خشبيتين بين فراغات الطوب الأحمر؛ واحدة على مدخل الشقّ والأخرى فى نهايته . من العارضة الأمامية تتدلى قطعة من الخيش ؛ باب . وعلى العارضتين قطعة من البلاستيك تميل فى اتجاه المدخل لتنحدر عليها الأمطار فى الشتاء ؛ سقف . فى الصيف يرفع عباس السقف حتى لايموت من الحر ، ومن الشقّ يتلصص على أيادى ورقاب وضحكات النساء الغافلات فى الشبابيك .

عندما استقر فى الشقّ لعبت الفكاهة برأسه ، فعلق على المدخل لافته كتبها له صبى من طلّاب المدارس على ورقة رسم ؛ " تجارة أبطال التحرير " .

الحاجة ويكا زرعت قرن فلفل حار فى مؤخرته حين قالت له:

– مفتشو الضرائب مرّوا ، قرأوا اللافتة وأخذوا عنوانك واسمك ، كنت نائما وقتها ، ربك يستر .

مّزق اللافتة ، وظل قرن الشطة يلسع دبره شهورا حتى فهم أن ويكا تسخر منه ، فضحك وعمل لها أكبر شقلباظ عنده وقال :

– كنت أعرف والله .

خشى الأكتع أن تفوته بعض الترتيبات المهمة لليل فغطى بضاعته بقطعة بلاستيك وثبتها بمشابك ثم دخل جحره . على الحائط بطانة من الخيش ، وأكياس يحفظ فيها ملابسه ، وصور معلقة . على الجدار الأيسر رؤساء ورياضيون وأزياء رجال فارغة ؛ مجرد ملابس . الأيمن ممثلات وعارضات ازياء وعشاق فى أوضاع حرجة . وسط المناظر المثيرة صورة قديمة لعباس بين أصحابه فى ملابس العسكر وعلى كمّه شريطان . فى نهايه الشق صندوق بقفل ، ثبت عباس ظهره فى الحائط بمسامير طويلة دقّها من داخل الصندوق حتى لايسرقه أحد . فى الركن قطعة خشب مسطحة ذات أربع عجلات يركبها عباس ويستخدمها كعربة فى مشاويره الطويلة ، يسميها " الخنزيرة " ويقول للناس : " آخر موديل " .

على الأرض زجاجات كثيرة ودلو متوسط الحجم من البلاستيك . اطمأن عباس الى وجود سبرتو بكميات كافية ونظّف

المكان من الزبالة التى القاها الجيران فى أول النهار ثم حمـل الدلـو وركـب الخـنزيرة وخـرج . اشـترى عصـير قصـب وعـاد . صـبّ السبرتو على العصير ثم مـلأ الزجاجـات وأغلقهـا . رصّهـا وعـدّ : " ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧......"

ألقى نظرة على المكان فانبسـط قلبـه ، ولكـن قفـز علـى رأسـه سؤال حيّره وهو كيف سينام مـع المـرأة فـى هـذا الجحـر ؟! . فكـر ووجـد الحـل : " سـأحل المشـكلة علـى طريقـة نـوم العسـاكر وقـت الراحة فى الخنادق ؛ ننام بطول الشق وقدما كل واحد فـى اتجـاه ، أنا فى الخارج وهى فى الداخل ورأسـانا متلاصقـان . اضـع رأسـى على صدرها وتضع رأسها على صدرى ، وفى هذا الوضـع يمكـن أن أكلّمها وأقبلها ، وعندمـا تطلبهـا نفسـى اتشـقلب فأركبهـا وتنحـل المشكلة " .

ارتاح للحل وفكّر فلم يجد مشكلة أخرى يمكن أن تزعجه فقفـز من داخل الجحر إلى الرصيـف بشـقلباظ كبـير ، وخبـط علـى صـدره وصـاح :

– الحمد لله .

فردت الإوزة جناحيها على وجه نوفل بينما كانت الشمس تغيب ببطء خلف لافتته المعلقة على مدخل الشارع ، هى الوحيدة بخط يده التى لاتزال معلقة حتى الآن . سرت الابتسامة الرعّاشة واللافتة ترفّ وتسطع بنور الشمس الغاربة من خلف ، وحولها تشكيلات من الشفق كأنها عرائس تطوف بها فى الملكوت .

لايستطيع الآن أن يقرأ الكلام من هذه المسافة الطويلة ، ولكنه يتذكره : " من أجل مصر ... العدل والحرية والأمان .. انتخبوا رمز المركب " . يتذكر أيضا أنه كتب اللافتة لشاب نحيل عصبى، يدخن ويتلفّت كثيرا وينكش شعره ، ويتهامس مع أصحابه . كان يلازمه دائما شبّان فى مثل سنه وعلى شاكلته . كتب له لافتتين فقط؛ هذه اللافتة ، وأخرى مثلها علقها على بيت القاضى الأثرى ولكن خصومه قطعوها فى الليل . فشل فى الانتخابات وكانت نتيجته مضحكة . اختفى مع رفاقه بعد ذلك ، ربما سافروا . الكل

سافروا ، طائرات كثيرة تعبر المدينة فى الليل والنهار ، تئز وترحل . هو نفسه لم ينتخبه ، طوال عمره يكتب اللافتات للجميع ولكنه لم ينتخب أحدا ، الآن لايعرف لماذا .

تسحّبت الشمس وطلعت من تحت اللافته ، تمطت عرائس الشفق ثم أطلقن اللافتة وغطسن مع الشمس خلف البيوت ، وبقيت نتف وردية من أيديهن متناثرة تحت اللافتة وهى ترف كأنها مركب يتخبط فى بحر بلا نور.

رقدت الإوزة على حزن وجهه ثم مدت منقارها بين حاجبيه ونامت . ظل يتلفت كالمدهوش وبصره الكليل حيران بين بقايا الشفق المعلقة والشارع الذى يتأهب لليل الكهرباء .

جمع بضاعته فى كيس كبير من الكتان وظل يراقب الموقف ، انتهز فرصة دخل فيها الأكتع جحره وقام ، وضع يده الرعّاشة فى جيبه حتى يداريها عن العيون ، وحمل كيس البضاعة باليد اليسرى. ظل يتلفت حتى خرج من الشارع . القى نظرة أخيرة على اللافتة الشاردة فى الغسق الأخير ، وتلفت أكثر من مرة خلال سيره فى الحارات حتى اطمأن إلى أن الأكتع لايتابعه .

فى رأسه وسواس قديم ؛ سيتابعه الأكتع ذات يوم لكى يعرف مكان سكنه فيؤرقه فى ليله بنفس الطريقة التى يسوّد بها نهاره ،

شر وقلة أدب . فكّر : " الأكتع لن يرتاح حتى أموت ، باع لـى كـل ما فى قلبه من شر ، يسقينـى كل يوم ملعقة ، يملؤها ويدسّـــها فى فمى غصبا . لن يرحمه القاضى " .

بعد أن اطمأن هدأت خطواته . دحرجت قدمه أحجار الطريـق وحلـم بالياقوتـة الحمـراء . مشـى عـبر حـارات ضيقـة مسـقوفة فـى طريقه اليومى إلى ضريح الشـيخ فرغلـى أمـير المرعوشـين وولـى أهل الرجفة . فكـر فـى الحكايـة وتعجّب : " لمـاذا جعلـوا ضريحـه جنب ضريح الجارية ؟! " . هو لم يزر ضريحها ابـدا ، يشـيح عنـه بوجهه كأنه لايراه ، لكن المسألة تحيّره : " لـو جـاء فـانوس اليـوم سأسأله ، لابد أن فى ذلك حكمة يعرفهـا فـانوس . لوجـاء سـأعرف منه " .

خلع نعليه على باب الضريح ، وفى الداخل مسـح بيـده اليمنـى المرتعشة قضبان الفضّة المزخرفة ، دس أنفه بين قضيبين وتوسـل فى سره : " نظرة ، نظرة واحدة وافعـل بعدهـا مـا تشـاء " . زادت رعشة يده حتى اهتز معها السـاعد وخبـط كوعـه القضبـان . حـوّل وجهه عن الراقد فى القفص المزخرف وحشرج:" أمرك يافرغلى ". كان عاتبا .

خـرج . أسـند ظهـره إلـى جـدار الضريـح وقلّـب عينيـه فـى المشـهد؛ صفـرة وليـل وكهربـاء وأخـلاط رجـال ونســاء وبيـوت .

انفرطت الأرض وضاع الأثر؛ التلال لم تعد إلى مكانها ، فرت من هول ماحـــــدث . هى الآن هناك خلف المدينة صخر على صخر وهضبة عالية .

هنا كانت جبال شهدت المحنة الكبرى ؛ عيون ماء ووديان وتلال أسس عليها الأمير فرغلى مدينته وأقام حصونه فى معاقلها . قال له فانوس : " التلال أسوار للمدينة فكيف يقدر عليها عدو ؟ وبوّاباتها رمال متحركة ؛ تسع بوابات مطلسمة ، فكيف يدخلها من لايعرف سرها ؟ " .

هنا مكان الضريح كانت أعلى القمم تلمع فوقها الصخرة السوداء ، مستديرة وناعمة كجلد الافعى. قال له فانوس : " كانت صرخة استغاثة أطلقتها الأرض فى زمن الطوفان . تجمّدت الصرخة وظلت تائهة فى الآفاق حتى استقرت فوق القمة العالية . يسمونها صخرة الأسرار " .

فى الأصائل يصعد على حصانه الأسود إلى الصخرة ليرقب مدينته بعقل أمير وقلب ولى . قال فانوس : " كل يوم كأنهم يرونه للمرة الأولى ، تسأل المرأة زوجها ويسأل الرجل أخاه : من ذا الواقف فوق القمة الشاهقة وشرر خطى حصانه المتململ فوق الصخر الأملس يومض فى الشفق ؟ كل يوم يسألون نفس السؤال يانوفل ، وكل يوم يرددون نفس الجواب : هوذا أميرنا فى عباءة

سوداء فوق حصان أسود على صخرة سوداء ، تطيّر الريح طرف شاله الأحمر . أسود فوق أسود فوق أسود ، يومض تحته قوس من شرر وفوقه قوس من شفق أحمر يتدلى من قباب الأفق " .

قال فانوس : " آه يانوفل لو شهدت ذلك الزمان ؛ كانوا يغنّون على جانبى طريقه الأسود الأملس الصاعد إلى صخرة الأسرار : سيف أميرنا برق أنزل الخوف فى قلوب اعدائه ، ورمحه طويل مثل نيل مصر ، شبك فيه مدنهم وألقاها فى الصحراء وغمرها بملح البحر " .

يقول فانوس :

– لم يقدر عليه فارس ولكن أذلّته الجارية .

– من الجارية يا فانوس ؟

– الجارية ، كل امرأة جارية .

وحكى فانوس :

– فتح لها قلبه وأعطاها مفاتيح الأسرار .

– أى اسرار ؟

– بوابات الرمال التسع ؛ الرمال المتحركة التى لا يعرف طلاسمها غيره .

يفكّر نوفل ؛ هل كان يحبها ؟

– فى جوف الصخر أمان المحارب يخلع سيفه وترسه ويسلم عروقه للجارية .

يفكّر نوفل ؛ من كان يستطيع أن يخمّن ؟!.

– ذات ليلة طلعت ، أضاءت القناديل على مداخل بيت الصخر ووقفت تتلفّت وتتسمّع ؛ كانت مسحورة بين الظلال . قالت له : " خلف التلال خارج المدينة عزف وغناء وفرح يا أميرى " .

فكّر نوفل ؛ وقتها لم يكن يعرف .

– وقالت : " أطلق الشعب فيفرح " . هو لم يسمع ؛ كانت حبلى وكان قلبه مشغولا بالولد .

يفكّر ؛ ترى من أبوه ؟

– ثم كانت ليلة الحزن يانوفل ؛ صحا وقت الفجر الكاذب فلم يجدها فى مكمنه الصخرى ، طلع ينظر فرأى أعداءه حوله من كل جانب ورأى بينهم جنوده وشعبه والجارية الحبلى . صاحت حين رأته : " أطلق الشعب " . وصاح أعداؤه : " أسلم الشعب " . رأى الشر على وجوه الجميع فنطّ على حصانه وزعق : " أهاه ...أهاه ". برق سيفه ورعدت صيحته فى الملكوت لكن يده كانت ترتعش ، نقل سيفه لليد الأخرى فارتعشت . طلعت الشمس ونادته : " اثبت ياقلب فرغلى " ، لكنه كان قد انكسر . قبض على سيفه بأسنانه وعلّق زنديه المرتعشين على الحد المسنون فبترهما السيف ، ثم

لكز حصانه فركض به فى الافق . الشمس خجلت ، أدارت وجهها وانكسفت خلف غيمة وانفرطت الجبال والتلال ، فرّت وتكوّمت خلف المدينة ، هى هناك الآن صخرعلى صخر وهضبة عالية . ثم كان ليل طويل على الأرض تعاقب فيه صيف وشتاء .

بدأ عباس طقوسه المسائية بلعبة الشجرة . ركب الخنزيرة الخشبية وزحف حتى نهاية الشارع ، انعطف يمينا ثم الى اليسار ليدخل الحارة المسدودة خلف مخزن الخشب . ألقى السلام على الأشجار : " السلام عليكن يا أمهات المؤمنين " ، وتوقفت تحت شجرة " زنبور الجارية " ذات الجذع المائل والزهور الحمراء ثم ترجّل ونزل من على العربة . رقد على الجذع ذى الميل واحتضنه بزندين قويين ، وزحف لمسافة قصيرة : " هه .. هه " حتى استراح جسده على الجذع . خلع سرواله وهو على هذا الوضع وبدأ يسترخى حتى ينفرج ما بين اليتيه ويفرغ بطنه .

لايستطيع ان يفعلها إلاّ وهو على هذا الوضع ؛ الشظايا لم تترك من فخذيه شيئا يرتكز عليه ويساعده على الانفراج . لو قطعوا هذه الشجرة ذات الجذع المائل لصارت مشكلة فكيف يعملها وهو معلق فى شجرة مستقيمة الجذع ؟!

تذكّر كيف كان يتصرف مع نفسه زمان ؛ كان يحفر فى

الأرض ثم يستلقى على ظهره ، يسترخى ويعملها فى الحفرة .

لكن وضع الشجرة ذات الجذع المائل كان اكتشافا عبقريا . الآن استراح؛ عملها ونزل .

ألقى السلام على الأشجار وانصرف . يتذكر امه الشجرة ، رآها اول مرة يوم عودته من الصحراء . كان فى صندوق السيارة المقفل وسط أجساد كثيرة هامدة . حين أفاق لم يكن متأكدا من شئ، كان خائرا . تطلع من الكوة الزجاجية فرآها ؛ رمال ممتدة وهى وحيدة ، عجوز مغبرة تفرد أغصانها نحوه والسيارة تمضى فى طريقها بحملها الهامد . تشبثت بها عيناه وناداها :

– أماه .

ربما نجا بسر هذا النداء .

فى دورة المياه خلف ضريح الأمير فرغلى اغتسل ولبس هدومه النظيفة . لما انتهى وجد أوان الصلاة الاخيرة قد فات وباب الضريح مغلقا ، فرفع يده بالسلام العسكرى وهو يزحف على اليتيه فى وضع " إلى اليسار انظر " . وقال للمحبوس فى الداخل : " تمام يأفندم " . وقال لنفسه : " لم يكن أقل من شاويش " . تذكر نوفل المرعوش واحتقره وقال لنفسه : " يستجدى الناس بيده المرتعشة ". يكرهه ، زمن الرجال انتهى . جسده مكتمل لاينقصه إصبع ولكن الرعشة فى روحه، لماذا يعيش إلى الآن ؟! فكّر : " لوكان الامر

ينفع لقفزت داخله وطردت روحه وتمددت فى أعضائه ، يلزمنى ساقان ويدان مكتملتان ؛ غدا سأتزوج " .

فى الطريق استوقف صبيا صغيرا :

– انتظر .

تمهل الولد بين خوف ودهشة .

– لاتخف ؛ افرد قامتك وابتسم .

وقف .

– ابتسم .

اخرج المشط من جيبه :

– الآن أنت مرآتى . لاتخف ؛ دقيقة واحدة وتنصرف .

فى الطريق دحرج الحصى بقدمه مرة أخرى وتأمّل سنابل القمح المعلّقة على مداخل البيوت . فكّر فى وصيّة فرغلى : " آه لو جئت الليلة يا فانوس ؛ سأطلب منك أن تحكيها لى مرة أخرى . لك طريقة فى الكلام لايعرفها غيرك ، أسمعك فتضئ ياقوتة القلب " .

زمان قال له فانوس : " جدّى وحده كان يعرف وصيته المنقوشة فى باطن صخرة الأسرار ، لاأحد يعرف متى دوّنوا الوصيّة ولا كيف نقشوها فى باطن الصخر . مشى فى زمن الخراب يغنيها على شطوط الترع والجسور ، كان لايغنى إلا فى الليل ، ينتصب فى مكامن الريح وربابته على راسه ، يهبّ ويعزف فتسمعه البلاد من أطرافها الى أطرافها . كان صوته قويا والريح تساعده والناس يسمعون ويتعجبون من أين يأتى الصوت " .

– كل البلاد ؟!

– كلها يانوفل . لو أنصت لسمعت .

– الآن يا فانوس ؟!

- الآن يا نوفل .

- لكن جدّك مات !!

- والريح لم تمت يا ابن العم . فكّر .

يفكر ؛ آه ما أعجب الكلام : " يا أهل مصر علّقوا على ابوابكم حذوة حصانه فلا تدقها أيدى الجبارين ، وعلقوا سنابل حنطه فلا يفطن الأغنياء لجوعكم ويشترون نساءكم بثمن بخس ؛ رغيف خبز . هاتوا عصف من ورد يابس وأوراق صفصاف وضعوه على شرفاتكم قربانا للريح فتبدده بدلا من أن تبددكم فى الأسواق ؛ فتبيعون ألسنتكم وتعرضون عرق سواعدكم على قارعة الطريق " .

- أكمل يا فانوس .

يضحك ويلوى طرف شاله الأبيض :

- كيف يا نوفل ؟! من يقدر أن يكمل والريح لم تتم نشيدها الى اليوم ؟! فكّر .

تاهت أفكاره وهو يدحرج الحصى . كانت خطاه تقوده الى بيته ولكنه تذكّر فحوّل اتجاهه الى بيت مطلقته أم الغائب . صعد نصف درجات السلم بمشقة ثم جلس على الدرجة الكبيرة وناداها بصوت ضعيف :

- يا جارية .

لم يسمعه أحد ، ولكن رآه صبى كان يهبط السلم قفزا فخبطه

بقدمه دون أن ينتبه . رجع الصبى ، صعد السلم ودفع الباب الموارب وقال للمرأة :

– **عم نوفل على السلم .**

كانت فى وسط الصالة تمشط شعرها المبلول ، فردته على صدرها وشدت أطرافه بيدها حتى لاتتعثر فيه أسنان المشط . لما فتح الولد الباب حوّلت ساقيها عن اتجاه عين الداخل وحبكت القميص على الساقين . سألت نفسها : " **هل رأى ؟** " .

– عم نوفل ..

– سمعت ، اخرج واقفل الباب .

لفت رأسها بمنديل ولبست الثوب الأسود ونزلت ، جلست على الدرجة التى تليه :

– لماذا لاتصعد ؟

هزّ رأسه هزات لامعنى لها ، لم يكن يقصد شيئا ، فقط كان يفكر : " هل أسألها ؟ " .

– لاتقلق يا نوفل ؛ هو ابنك . لابد أن اخبرك بأى شئ اعرفه عنه . صدّقنى .

استمر يهز رأسه حتى ظنّت أنها الرعشة .

– صدّقنى .

كان يفكر ؛ متى صدقت ؟!

– زوجى ذهب اليوم الى السفارة مع أحد أقاربه ، له معارف
وأصحاب هناك . تأخر ، اليس كذلك ؟ ربما عرف شيئا .
طال سكوته فقالت :
– زوجى مهموم بالأمر كأنه واحد من أولاده .
الرّعشة .
تذكرت فغيّرت الموضوع :
– الأولاد لم يرجعوا ؛ كبروا وتعلّموا السهر .
تسنّد ووقف . وضع الكيس على كتفه .
– لوعرفت ساخبرك ؛ أنت أبوه .
نزل درجة .
– لن تتم اى اجراءات بدونك ، لابد أن توقع على الورق .
سرى النبض الكهربائى . درجتين .
– توقيعك مهم .
ثلاث . وقفت وادارت وجهها فى حيرة :
– مهم ؛ أنت أبوه .
أربع . كوّرت الإوزة مؤخرتها . تنهدت :
– ليته يعود .
خمس درجات .
– انتظر .

واصل النزول لكنها لحقت به عند الباب :

- خذ ؛ لقمة للعشاء .

وقالت :

- أعرف ؛ قلبك موجوع . غدا سأمر عليك لأخبرك بالنتيجة .

وسألته :

- أين تجلس الآن ؟

- هناك .

- عند ويكا ؟

- آه ، ويكا .

- سأمر عليك غدا .

وقالت للصبى الذى رأى :

- خذ بيد عمك نوفل حتى آخر الحارة ؛ حفر الطريق كثيرة .

طوال الطريق كانت يده ترتعش . زادت الرعشة حتى هزت مفصل الكتف . فكّر فى المرأة : " الجارية كبرت وشاخت ، أصغر منى بعشرين سنه لكنها شاخت " .

على الجانبين مقاه ودكاكين وناس . برم نفسه داخل جلده وتسحّب بمشقة وسط الضوضاء ، برمها حتى كاد يتلاشى . كانت عيناه ترمشان وهو يطرد صورة الجارية : " لم تلد لى غيره،وولدت لغيرى أربعة " . تمهل عند بيت القاضى ، وابتسم

ابتسامة الإوزة حين تذكر قـول فـانوس : " كـان لايرحـم القـاتل ولا الزانية " .

رمته المرأة المخبولة بالحصى ، وخّرفت :

– أقفل فمك وابعد ، رأسه موجوع وقلبه عليل ولا يريد زيـادة فى الكلام . ابعد واحذر أن تدنّس طرف السجادة .

علـى بـاب داره تلفّت للمـرة الاخـيرة ليتـأكد مـن أن الأكتـع لايتابعه، ولما رأى القمـر خـاف وتعجـب مـن حيلـه الكثـيرة . دلقـه الخوف فى عتمة المدخل ، وتخبط فى الممـر الـدوار حتـى اسـتراح قلبه على باب غرفته . دخل وأضاء المصباح .

جعـق بساعديه بقوة وجلجلت عجلات الخنزيرة على الأسفلت.
فى الطريق ملأ بطنه بالكشرى والشطّة ثم مر على المقهى فعدل مزاجه بكوب من الشاى وفكّر : " فى الصباح سأسأل الحاجة ويكا. لاداعى للكسوف ، لو كانت تخدعنى سيظهر الكذب على وجهها " .

لعب الكوتشينة مع ناس لايعرفهم، وخسر الرهان من أول دور فانسحب من اللعب ، وقال لنفسه : " فلوسى قليلة لاتحتمل الخسارة ووجوههم قاسية ؛ لن يردوا لى فلوسى " . القمار ضيّعه زمان ؛ خسر التعويض جنيها وراء آخر حتى أفرغ جيبه على الطاوله ، ولكن لايزال فى رأسه خاطر يلاعبه : " ذات يوم سأكسب ، ضربة حظ واحده وينعدل الكون ، الطريقة الوحيدة لتعويض كل شئ " . وقال لنفسه : " سأشترى عربة معدنية بعجلتين كبيرتين " .

الآن آن الأوان . عاد الى جحره وشرب من عصير القصب والسبرتو . كانت ويكا تتأهب لاغلاق دكانها فحيّاها وأخذ منها سيجارة . أشار الى مكان نوفل وسألها :

– أين ذهب ؟

– نزل تحت الارض ، هرب منك .

– لن يفلت .

– اترك الرجل فى حاله لماذا تطارده ؟!

– كيف آمن لرجل لا استطيع أن أرى أسنانه ، ربما كانت له أنياب كلب . لن اتركه .

فكّر فى الامر الآخر وهم أن يسألها لكنه أمسك لسانه وقال لنفسه:" لوعرفت اننى ملهوف ستلعب بأفكارى، الصباح أحسن".

يتذكر ؛ نساء وقطارات . صفّارات وأجراس ومناديل ، رحلات الليل والنهار ، وجوه على المحطات ؛ خدود وشفاه وعيون. بنات يبعن المثلجات ، يشرب ويلمس بكوعه الصدور الطرية . مع السلامة يادفعة ، مع السلامة .

يتذكر ؛ القطار فى حديقة البرتقال ، توت توت . هرب من الزحام والحر والكمسارى الى سطح الديزل . البنت كانت وحيدة ، رمت له برتقالة : أحبك يا دفعة . طاشت البرتقالة وبقيت ذراعه مفرودة . أخذت من حجرها ورمت له غيرها ، طاشت الثالثة والرابعة . الهواء يخبط ضلوعه ويده مفرودة والبرتقال ينفرط ويتدحرج على الأرض . البنت تجرى والقطار : توت توت . مع السلامة يا دفعة . توت توت . مع السلامة يادفعة .

مع السلامة .

الآن الشارع يخلو ، غبار فيَ الأفق وحر وقمر وكلاب تلهو . معه زجاجات العصير والسبرتو ، رصّها فى الدلو ثم حملها معه على الخنزيرة . يشرب ويزحف على عربته وعجلاتها تجلجل على الأسفلت كأنها مدرعة . عمل مناورة بارعة بالعربة ، سريعا الى الأمام ثم الى الخلف ، وعمل دورات كاملة الى اليمين وأخرى الى اليسار ، ثم استقر على الرصيف عند الناصية حيث تلتقى الحارات. استقر فى وقفة مهيبة . شرب ولم يعجبه المنظر ، قال للقمر : " لو كنت مكانك لعجنتها وبنيتها من جديد " . أعجبته الفكرة فضحك وحاول .

بخبرته كخبّاز سابق عجن المدينة ثم كوم العجينة أمام ناظريه وأعاد تشكيلها ؛ بسط الوديان وفجّر الينابيع وأطلق الخراف فى المراعى ورص التلال حول المدينة ، ثم رفع أصبعه الوحيدة فدحرج الصخرة السوداء ؛ صخرة الأسرار الهائمة فى الآفاق ، دحرجها حتى استقرت على القمة العالية .

الناس بين الوديان والشعاب ينتظرون . الآن لاحركة .التفت الى المرأة وأعاد تشكيلها ايضا ؛ قصف رقبتها ورماها ووضع مكانها وجه ويكا ثم وضع المرأة على يمينه والبسها ثوب العرس . الآن اهتم بنفسه ؛ العريس . لبس جسد نوفل واحتفظ بوجهه حتى

لايختلط الأمر علــى المـرأة أو عليـه ، فقـط أعطـى الوجـه اسـتدارة القمر وعلق شريطين على كمّه .

لما أتمّ عمله انبسط قلبه واستراح ، شرب زجاجة دفعة واحدة. الان نفخ العازف فى المزمـــار فهبـت نسـائم صيـف وتحـرك النـاس على جانبى الطريـق يحيونـه ، تـأبط ذراع المـرأة ونـزل مـن علـى الرصيف . عزفت العجلات لحنها على الأسفلت ترددت فى أذنيـه أخلاط غناء ونقرات دفوف . كانت زفّـة عجيبـة مشـت فيهـا كـلاب الشارع ، جذبتها رائحة الكشرى المخلوط بعصارة المعدة فـتزاحمت تتشمم مؤخرة العريس .

لم ينتبه إلا بعد أن عضـه كلـب مـن خلـف فضربـه بالمدفعيـة الثقيلـة ، ولمـا اقـترب غيره قصفـه أيضـا ، وظـل يطـارد الكـــلاب وتطارده حتى قرب الفجر .

أسند نوفل ذقنه على قاعدة الشباك ذى القضبان ، وتأمل الشرفة الواسعة فى بيت القاضى والقوس الحجرى الذى يحدّها يسارا . منذ زمن طويل لم ينعقد مجلس العدل فى هذه الشرفة ، ولاتدفق الناس من تحت القوس الحجرى الى الساحة الواسعة يهتفون للقاضى ياقوت .

أثر قديم ؛ بيت من طابق واحد ، خلفه بيوت عالية وقباب ومآذن، وفوقه أفق وسماوات ممتدة . على الرصيف تحت القوس الحجرى تسكن المتسولة المخبولة . تنام فى النهار وتصحو فى الليل لتتسول على طريقتها الخاصة ؛ تشتم المارة وتلعنهم :

– ارم صدقتك من بعيد وانصرف . لاتلمس يدى ولاتدنّس السجادة . من بعيد يا نجس ، ارمها وانصرف .

أحيانا تتمشى أمام الشرفة وتخاطب الغائب خلف غبار الأبواب الأثرية العالية :

– انصرفوا فلا تخف ؛ اطلع يا روح أمك وتسند على أكتاف

أخوتك. اطلع؛ الهواء البحرى فى الشرفة يرد روح العليل. اطلع ياياقوت .

نوفل في جلسته هذه منذ عاد ، لانام ولا أكل ولا طلع من غرفته . الأكل فى الطبق والإبريق على الشباك ، يرشح ماؤه فى طبق نحاسى قديم مزخرف الأطراف . جلس يتأمل الشرفة والمرأة والعابرين ويترقب عودة فانوس المغّنى . من شهور لم يمر عليه ، شهور كثيرة ، ربما سنه . سنون .

الليلة ينتظره ، هولا يصدق انتظاره ولكنه ينتظر . ترك الأكل على الصينية وقال : " سنتعشى سويا ، سأتركه يأكل حتى يملأ بطنه ثم يميل على جنبه ويحكى . سأتركه حتى تنفد حكاياته " .

حكاياته كثيرة . يضحك فانوس ويقول لنوفل :

– توارثها أجدادى ، جدى الأكبر كان أول من نفخ فى ناى وأجرى القوس على وتر .

وحكى : أحفاد عبد المولى وحدهم يحفظون هذه الحكايات ، غيرهم يكذبون . هم كانوا أصحاب الدنيا وبأيديهم وأمام عيونهم حدث كل شئ . جاء زمن شغلوا فيه الناس بحكاياتهم وبلبلوا أفكارهم فحرّم السلطان كلامهم وشتتهم فى البلاد. مات السلطان وبقوا ولكن بعد أن بدّلوا هيئاتهم وغيّروا أسماءهم . زمان كانت أسماؤنا عبد المولى وعبد الغفّار وعبد الستّار ، الآن أصبح من

أسمائنا ونيس وسرحان ويعقوب وفانوس . بدّلنا أسماءنا ولكننا نعرف بعضنا الى اليوم . بنو عبد يعرفون بعضهم ولا يخلطون فى أنسابهم أبدا ، ولهذا ظل فيهم اللسان الحلو وبقيت معهم أصول الحكايات . غيرهم يكذبون ، حتى الذين دونوا كذبوا.

صوّب أصبعه الى رأسه وأطلقها :

– العلم فى الرأس .

– أنت نفسك تكذب أحيانا .

– أنا ؟! بنو عبد لايكذبون .

– أحيانا تحكى الحكاية ، ثم أسمعك تحكيها لغيرى بشكل مختلف.

– عجيب !

– مثلا حكاية الأمير فرغلى المرعوش سمعتك مرة تحكيها بشكل مختلف . قلت أنه لم يكن أميرا وإنما درويشا ، أميرا على الدراويش . ذات يوم خرج الدرويش من خلوته ، طلع من مدينته ذات الأبواب التسعة المباركة وسار وراء الثوب الهفّاف والصوت الجميل الذى يناديه ، لم يعرف أن لكل ولى اختبارا تدبره الملائكة . نسى نفسه وسار خلف أجمل النساء ؛ جارية الملك . هكذا بدت له فسار حتى وقع فى المحظور .

سحبته المرأة الى الخلاء ، وهناك تاه فى الجمال الذى لم تره عين . طاوع نفسه وخلع أسمال الدراويش ، ولما همّ بها انشقّت الأرض وابتلعتها ، فانفتحت بصيرته وعرف أنه وقع فى الشرك . ستر عورته بيده ونظر الى السماء ، سطعت الشمس فى منتصف الليل وتفتّحت شرفات السماوات . رأى العيون تطل عليه من كل جانب ، وسمع ضحكة إبليس ترن فى الملكوت . كانت وجوه الملائكة حزينة وواجمة .

ندم ، ولكن الوقت كان قد فات . نكّس رأسه وانفجرت فقاعة الخوف فى قلبه فرعشت أطرافه . ظلّت الشمس قائمة على رأس المشهد صيفا وشتاء كاملين وهو فى مقام الرعشة وسط الخلاء . ظل يرتعش ويرتعش حتى ارتجت من رعشته الارض واهتز الملكوت . ثم كان أن انفرطت اعضاؤه من الرعشة وتناثرت فى الخلاء ، فغُفِر له . فتحت الارض أبوابها لاعضائه المنفرطة ، ثم ختمت عليها الريح فضاع الاثر . **أنت قلت ذلك يا فانوس .**

– آه .. تقصد ذلك ؟ هذا حدث أيضا يا نوفل .

– عجيب يا فانوس !

ضحك .

– لاتتعجب ، فكر .

حاول أن يفهمها فلم تدخل رأسه ، جادله :

– عجيب !

ضحك ، مال على جنبه وعوج طاقِيته :

– فى حرفتنا أسرار ورثناها عن جدنا عبد المولى ولا يعرفها غيرنا . سر الأسرار عندنا : " ليس المهم من يحكى . المهم من يسمع " . لو فهمت لعرفت أننا صح ، وعرفت أن من دوّنوا كذبوا. تحيّر نوفل، قلّب الجملة فى رأسه ولم يفهمها الى اليوم . لو جاء فانوس سيقول له : " اشرحها لى " .

غريب وجه فانوس ؛ عندما يحكى يميل الى الخلف ويغطس سواد عينيه تحت حافة الجفنين خلف الرموش الطويلة مثل طفل يغرق بهدوء بين أغصان السيسبان . هل يعذّبه الكلام ؟! كان يحب المخبولة الساكنة تحت القوس ويقول عنها : " مسكينه وقلبها موجوع " . هى أيضا كانت تحبه ولا تخاف منه مثل غيره . حين تراه تهشّ فى جلستها وتشير بيدها لتبعد العابرين عن طريقه :

– ابعدوا ، الحكيم وصل .

ثم تمسح وتربّت الارض بيدها :

– السجادة طاهرة ؛ اجلس يا دكتور .

وتسأله وهى تشير الى الشرفة الواسعة :

– رأيته ؟

لايجاوب ولا يجلس . ينظر اليها ويمسح شاربه ثم يرمى

القروش فى حجرها ويستدير . فى فمه كلام ولكنه لاينطق .

– أعّرف يادكتور ؛ علّته صعبه وقلوب اخوته قاسية .

طويل ، عمامته مائلة ورأسه يتطوح على الجانبين ، وطرف شاله الابيض يهتز على جلبابه البنى . يخطو نحو الشرفة العالية وتلاحقه المخبولة بالكلام :

– ولدتهم بطن واحدة ولكن قلوبهم قاسية عليه .

يشّمر فانوس كمه ويسند مرفقه على السور الحجرى أمام البيت الاثرى ، رأسه يتطوح وعيناه شاخصتان الى الشرفة. كانت المخبولة لاتزال تثرثر ، هذه المرة تحدّث العابرين :

– ادعوا له ، الحكيم عنده .

تتململ قدماه على الأرض ؛ فى الرأس كلام وعلى الشفة نغم.

يقول فانوس لنوفل :

– أحيانا كأننى أراه خلف غبار الشبابيك المقفلة ؛ عمائم مائلة فى الظلال ، عناكب وحفيف اثواب وعيون محّدقة . لاأعرف يانوفل هل يمشون أم أنهم وقوف ، لكننى أراهم فوق السجادة الداكنة . هو بينهما ناحل مطرق ، عمامته ثقيلة على الرأس وسواد العباءة ثقيل على كتفيه ، جفونه شبه مطبقة وتحت جفنى عينه اليسرى تتقلب ومضة ثقيلة وبارقة ؛ الياقوتة . كل أخ يمسكه من يد ، طويلان نحيلان، رأساهما مائلان الى الخلف ،وعيونهما السود

تحدق فى العتمة واسعة وساكنة .

يتعجب نوفل من الكلام . نسى أن يسأله عن المرأة المخبولة . لوجاء اليوم سيسأله : " هل هى أمه يا فانوس ؟ " .

تتململ ذقن نوفل على قاعدة الشباك ويمد نظراته من خلال القضبان الى الشرفة . فكّر : " آه يا نوفل لو رأيته ، هكذا فجأه ؛ تنفتح الأبواب ويطلع الى الشرفة وسط أخويه وتبرق الياقوته فى الظلام " . اقشعرّ جلده .

رفع رأسه فرأى القمر فى الأفق . كأنه كان ينظر اليه ؛ وجه وابتسامة ساخرة . لعن الأكتع وتعجّب من حيله الكثيرة . نفخ ، وسأل نفسه : " لماذا تأخر فانوس ، هل سافر يا ترى ؟! " .

لسحبة القوس على الربابة ارتعاشة يشرئب لها القلب . زمان مرّ القوس على الوتر ولم يكمل النغم ، وظل قلب نوفل معلقا ينتظر . على جفونه غبار سنين طويلة غاب فيها فانوس وانقطعت اخباره . قال لنفسه : " لابد أن صوته يجلجل الآن فى مكان ما ؛ ربما كان هناك فوق صخرة الأسرار السوداء ، تطيّر الريح طرف شاله الأبيض ، يسند ربابته على رأسه بيد ويحرك القوس عليها باليد الاخرى ، يعزف ويجلجل صوته ويعيد الحكايات من أولها ، رجل مثله لايموت " .

فكر نوفل : " لو انصت جيدا لسمعت ؛ ثمة ارتعاشة قوس

خلف الليل والبيوت ، تكاد الأذن تمسك الصوت لكنها شاخت ، خسارة . بالتأكيد هناك رجل فى المدينة يمكن أن يسمع بشكل أوضح ، ولكن هل ينتبه ؟

المدينة نامت .

زمان قال له فانوس : "

– الوحدة ستعض قلبك وتنهش جفونك ، وتظل عيناك شاخصتين طوال الليل حتى يوجعك النظر .

يومها قال له :

– رأيتها بعينى هاتين يا فانوس فكيف أستطيع أن أغفر ؟!

فانوس فهم وهز رأسه. أشار بوجهه ناحية بيت القاضى وقال: " كان لايرحم القاتل ولا الزانية " .

نسى يومها أن يحدث فانوس عن الولد . لو جاء الليلة سيقول له : " لم أكن وحيدا تماما يا فانوس " .

الولد كان يأتى أحيانا ، غالبا يحدث ذلك فى آخر الليل . يدق الباب ويدخل ، يأكل ما يجده ويشرب من الإبريق . سهر مع أصحابه فى المقهى وتأخر فجاء لينام . هو كان يفتح الباب ثم يدير ظهره وينام . الحقيقة .. الحقيقة ؛ لم يستطع أن ينام ولا مرّة . كان يدير ظهره ويغلق عينيه ويتخبط فى عتمة أفكاره تحت الجفون المغلقة . لم يجرؤ أبدا أن يصارحه ، ولا وجد إجابة على سؤاله .

أحيانا كان ينهض ليغطيه . هل كان الولد يحبه أكثر من أمــه ؟ مـن يستطيع أن يعرف ؟! كان قد أصبح رجلا وقلوب الرجـال أسـرار . حتى سفره لم يعلم به إلا بعد مدة ، كان قد مّر شهر ولم يره فذهـب الى الجارية يسألها ، جاوبتـه : " سـافر " . ألقـت الكلمـة فـى وجهـه وكشّرت كأنها تفضل ألاّ تبوح بها . أدار لها ظهره وانصرف .

سـافر مثــل غــيره ، وحتــى الأن يســافرون رغـم الحــرب ، طائرات كثيرة تعبر فوق المدينة طوال النهار والليل . سأل نفسه : " هل يرجع ؟ " . كان سفره الى الكويت ولمّا قامت الحرب رآه أحد أصحابه فى العراق وقال : " ناديته ولم يسمع ، كنا فى زحام وهرج وسط آلاف الخلائق ، بعضنا كان يسرع صوب الأردن " . الجارية أخبرته بذلك فلعنها فى سره ؛ متى صدقت ؟!

غفا وهو ينتظر ، وفى غفوته سمع خطــى وحفيـف ثـوب ورأى الياقوتة تـبرق علـى الأرض ، مـد يـده مـن خـلال القضبـان ولكنهـا كانت بعيـدة. انحشـر وحـاول ، ثـم سـمع خبطـة علـى الجـدار ففتـح عينه، قال : " لعله فانوس " . كانت المخبولـة ترمـى الحصـى علـى الطريق .

خلف القضبان ساحه واسعة وشرفات عالية غارقة فى الظلال، وصوت المخبولة يزحـف مـن تحـت القـوس وهـى تهـشّ الظـلال : " ابعدوا " . خافت وتعبت والتصقت بجدار القوس .

قام . كان جسده مخدرا ويده ترتعش . أخفى الرعشة فى جيبه وأمسك الطبق بيده الاخرى . فكّر : " المخبولة جوعانة وهو تأخّر، لوتركت الطعام الى الصباح سيفسد " . تخبّط فى عتمة الممر الدوّار وطلع الى الساحة .كان يمشى باحتراس صوب القوس : " لوهناك أقواس أثرية مثله لرقد الولد تحت أحدها ونجا من قصف الطائرات وطلقات المدافع . مثل هذا القوس لايهدّه زلزال " . قلّب أذنيه فى الآفاق وحاول أن يتسّمع الاصوات التى تهب من خلف المدينة : " هل عزف أناشيد أم طلقات رصاص يا ترى ؟ " .

وهو يقّلب وجهه ليسمع لمحت عينه القمر فزادت رعشة يده ولعن الأكتع . ثم ارتجفت خطواته حين قصفه صوت المخبولة ووقفت له :

– مكانك يا كلب ؛ الحرس على الباب .

مد يده بالطبق :

– طعام .

– ابعد .

– طعام ؛ سمك ورز .

– قلبه موجوع والبطن زاهد .

– لك ، كليه .

جلست ، وزحفت حتى التصق ظهرها بالجدار :

– ابعد ؛ لاتدنس السجادة برجليك ولا توجع رأسى بالكلام ، سأخبره عندما يطلع .

قرفص ، مد يده ومطّ ظهره ووضع الطبق قربها على الأرض:

– كلى . كنت احتفظ به لفانوس لكنه تأخر . ربما سافر . الولد أيضا .

تشمّمت ولفّت الشال على رأسها ، كانت عيناها تائهتين . حَرك يده ولكنه لم يعرف لأى شئ يشير :

– تركنا وغاب .

– قلت لك ابعد ، لاتوجع رأسى .

– الدكتور؛ فانوس .

زحف خطوتين الى الخلف وهى تمد يدها . أخذت الطبق ودلقت السمك والرز على طرف ثوبها ، ثم رمت الطبق الفارغ فى وجهه .

– أحيانا كان يتأخر ،لكنه كان يأتى دائما .

بدأت تأكل .

– كان يأتى فى آخر الليل جوعان ، يأكل ما يجده ويشرب من الأبريق .

زمجر صوت فى حلقها و سال اللعاب من زاوية الفم . سكت

حتى هدأت ، ثم أشار الى بيت القاضى ذى الشرفات العالية :

– كان يحبــه ؛ قال لى عنه : الياقوته أضاءت فى عينه ، الدكتور قال لى .

تردد قبل أن يسألها :

– أنت أمه ؟

صرخت فى وجهه :

– ابعد يا جاسوس ، لاتقرب السجادة .

زادت رعشـة يده . قـام ، أخـذ الصينيـة الفارغـة وتمهّل أمـام الشرفة الأثرية . لم يستطع أن يرفع رأسه ، نكّسه وتوسل اليـه فـى سرّه : " احكم بالحق ، لاتظلمنى " .

بسروال مبلول وجسد هزمته الكلاب استقر عباس فوق عربته على الرصيف قرب مدخل الشقّ . نفس المكان الذى يفرش فيه بضاعته فى النهار . وحيد ؛ حتى المرأة خطفتها الكلاب منه . هى ذى الآن تتهارش تحت المصباح فى آخر الشارع ، وتتلفّت نحوه فى مكر وشماته . يعرفها واحدا واحدا ، منذ عهد الصحراء يعرفها، لن يفلت واحد من انتقامه ، ذات يوم سيثأر .

الآن يشرب زجاجته الاخيرة ، ويتأمل الشبابيك المفتوحة على ليل الصيف ؛ سيجارة تومض ورجل سهران فى شباك بعيد مثل شاخص خشبى مرفوع فى تبّة ضرب النار . أدار ظهره للمشهد وشتم الرجل السهران : " كلب مثلهم " .

تأمل نور النيون على لافتة دكّان الحاجة ويكا ؛ سوبر ماركت العهد الجديد . امرأة قادرة لم تغلبها الدنيا ؛ تأكل ما تطلبه نفسها ، وتتحرك على الأرض بثبات مثل مدرعة . الناس يشبهون تلك الأشياء تماما . بعضهم يذكّرك بالرشاش الذى لاتحس بوجوده حتى

يفاجئك بطلقاته من بين أكياس الرمل ، بعضهم طائرات . هناك من يشبه الآر، بى ، جيه ، ثقيل الحركة لكن طلقاته صاعقة . الكثيرون مثل سيارات الزيل القديمة تميل على الجانبين وتنغرز فى الرمال . وأنت ماذا تشبه يا عباس ؟ فكّر ووجدها : " شظية ، نعم شظية تدمى وتذبح ، ولكنها لو استقرت علىالأرض أصبحت لعبة فى أيدى الاولاد " .

تطلّع الى اليمين وسأل خيال نوفل : " وأنت يا عجوز النحس ، هل تعرف ماذا تشبه ؟ ربما عربة زيل قصفتها القنابل ، فوانيس معتمة ، وعجلات خائرة مغروزة فى الرمل ، وحديد مصهور . شئ لالزوم له ، مجرد قطع غيار " .

فى شقلباظ ثقيل سكران طارت الشظية واستقرّت قرب خيال السيارة المقصوفة .غلبه السكر فلم يستطع أن يكمل شقلباظه . رقد على ظهره وخبط على الأرض بيده ذات الأصبع الوحيدة :

– اطلع يا نوفل . الى أين تهرب منى ؟! سألبس لك وجه القمر ؛ انزل تحت الأرض وأطاردك فى شوارع المدينة ، وأفاجئك عند كل منعطف وانزلق اليك من الشبابيك ، وأجزّ طرف لسانك الذى لايكلمنى .

مرة أخرى طوت الإوزة جناحيها ، واستقر الرأس على قاعدة الشباك قرب الإبريق. سكن خلف القضبان ، واستسلم الجبين لهبّات النسّيم الباردة فى آخر الليل . العينان فقط تتقلبان فى العتمة والظلال .

لايعرف هل يفكر أم يحلم : " فانوس يمكن أن يتأخر اكثر من ذلك ، ولكن لابد أن يأتى ، قلبى يحدثنى بذلك " . فانوس نفسه كان يفكر بهذه الطريقة ؛ قال له : " إذا حدثّك قلبك طاوعه " . وقال :" من يستطيع أن يفرق بين تخاريف هذه المرأة وصدقها ؟ العالم أسرار. ومايدريك يا نوفل ماذا يمكن أن يحدث وأنت فى مجلسك هذا ؟.. ذات ليلة تكون خلف الشبّاك هكذا،لاتفكر ولاتنتظر شيئا وفجأة تنفتح هذه الشرفات وتبرق الياقوته فى الظلام " .

اقشعرّ جلده.

كل أسرار الحكايات القديمة يعرفها فانوس ، حتى حكاية القاضى لايعرفها غيره فى المدينة . قال : جدى الأكبر شهد زمانه،

جلس على كرسى القضاء وهو طفل بلا شهوة ، مرة رفّت إحدى عينيه أمام زانية جميلة فقلعها . كان هو فى الشرفة يسمع ، وهى فى الساحة ، والناس ينتظرون حكمه . لما رفّت عينه سكت وطال سكوته حتى ظن الناس أنه انخرس ، تململ فى مجلسه، ثم مد يده فقلع العين التى رفّت ورماها أمام الناس ، ثم استوى على الكرسى وحكم . كان لايرحم القاتل ولا الزانية .

اتعرف لماذا سمّاه الناس ياقوت ؟ وضع بين جفنيه ياقوتة حمراء فى حجم حبة العين حتى لايقول الناس : " قاضينا أعور " ، من عدله اضاءت الياقوتة بين جفنيه فأبصر بها ولهذا سماه الناس ياقوت .

من يستطيع أن يصف ماحدث فى ذلك اليوم ؟! طلع القاضى الى الشرفة ومعه دفاتره وأقلامه ، جلس على الكرسى وانعقد الديوان ، كان فى الساحة سارق قبض عليه الحراس وقيّدوه بالحبال ورموه أمام القاضى . لما رأى اللص القاضى بكى وطلب الرحمة : " احكم بالحق ". تحيّر القاضى من كلامه وطلب المدينة كلها للشهادة . كل الناس جاءوا وانحشروا فى هذه الساحة ، كلهم . لم يترك فى المدينة طفلا يستطيع ان ينطق كلمتين إلا وطلب شهادته ، المدينة كلها .

ظل الديوان معقودا صيفا بأكمله والشمس فى مكانها واقفة

علـى رؤوس الخلائـق والحّراس حـول السـاحة . سـمع القــاضـي ، ولكن كل كلمة كانت تزيده حيرة . صيف كامل وهـو يسـمع ويقلّـب أوراقه ودفاتره والناس ينتظرون .

وفجأة ، هكذا فجأة ؛ برقت الياقوتة بيـن جفنيـه فـرأى وحكـم . يومها أطلق السارق ، وسجن المدينة كلها .

كان لايزال مستلقيا على ظهره ، مصّ القطرات الاخيرة من الزجاجة وسندها تحت إبطه ، ثم خبط الأرض بباطن كفّه : " اطلع يا نوفل ، لافائدة من الهرب . ساعة وتطلع الشمس ويسوقك النهار الى هنا طائعا كالكلب ، وقتها لن أرحمك " .

نهره :

– اطلع .

ثم لحس شفتيه وحايله ، كان يحاول أن يقنعه : " اذا كنت تخجل أن تتكلم أمام الناس حتى لايضحكوا على خيبتك فاطلع الآن. الرصيف خال وأنوار الشبابيك مطفأة ، الكل ناموا . اطلع وأرنى أسنانك ، الآن لايراك غيرى " .

مصّ هواء الزجاجة وسخر منه : " لاتظن اننى أريد منك أكثر من ذلك ، أنت لاتساوى شيئا ولا تصلح لشئ . زمان كنا نخلع أبواب البيوت المقصوفة والمهجورة ، نركّبها على مداخل ملاجئنا تحت الارض أو ننام عليها . أنت أيضا لم يعد منك أكثر من ذلك ؛

باب أو شباك ، يد أو رجل ، قطع غيار . ما فائدة اليد أو الرجل لرجل مثلك ؟! هل بقى لديك من الهمة ما يكفى لتحرك يدك وتهشّ ذبابة عن وجهك ؟!

نفخ شدقيه بهواء الزجاجة ثم لبس له وجه القمر وفاجأه بضحكة :

– اطلع يا نوفل وسلّم نفسك ؛ المدينة محاصرة .

هبّت دفقة هواء فخبط خشب الشبّاك الحائط . رجف قلبه وهو يفكّر : " سجن المدينة كلها وأطلق اللص !! "، فيها حكمـة لايفهمها. لو جاء ، فانوس سيقول له : " وهذه أيضا اشرحها لى ".

زمان سأله :

– وعينه الاخرى المقلوعة ؛ العين الحية ، أين راحت يافانوس؟

– ربما تحولت الى ياقوتة أيضا ، ولكن لم يعثر عليها أحد حتىالآن .

– وسيف الأمير فرغلى ، هل وجدوه ؟

– السيف نائم فى الضريح ، نائم وحده ، ولاشئ غيره .

– والأمير ؟

– ركض به حصانه وطار .

يفكر نوفل : " فى أى سماوات يركض الآن الحصان بالولى الحزين ؟ والى أى اتجاه تسوقه الريح ؟ هل شاخ يا ترى وشاب

شعره فأصبح مثل خصل السحاب المتناثرة فى ليل الصيف ؟ ترى من يطعمه إذا جاع ، ومن يسقيه فى وحشته السماوية الطويلة ؟ ".

- ويداه يا فانوس ؟

- لم يعثر عليهما أحد ، ربما أكلهما وحش .

قرب الفجر مرّ طابور الكلاب ، المشهد المألوف فى نهاية كل ليل . طابور طويل اختلط فيه البنى والأسود والأبيض . أنوف مطرقة تتشمم الارض ، وعيون ماكرة تراقب جانبى الطريق .

نهض عباس وتراجع ببطء وحذر حتى أسند ظهره الى الحائط. هبّت رياح الصحراء ففكّت الأربطة وعرّت الأطراف النازفة . كتم انفاسه حتى لاينتبه أحدهم الى وجوده . كان متوثبا مستعدا لبدء المعركة فى أى لحظة ، لكنه كان يتمنى أن يمر الموقف بسلام . راقب المرور البطئ للطابور ولاحظ الذيول المطمئنة المنسدلة على الأعجاز الضامرة ، تماما مثل كلاب الصحراء التى التهمت الأعضاء المبتورة . دم .

فكر فى نوفل ذى الأنياب ، وحاول ان يخمن أى واحد هو فى هذا الطابور الطويل : " بالتأكيد يتحول فى الليل الى كلب ، يظهر على حقيقته ويكشف عن أنيابه . لو انفردت به لفاجأته وامسكت ذيله وطوّحت به فى الهواء ، لكنه الآن يحتمى بالجماعة ولهذا

يمشى مطمئنا هادئا " .

لعق مرارة حلق الزجاجة الفارغة ، وراقب القمر وهو يغطس خلف البيوت كأنه طلقة مضيئة تنطفئ فى مياه البحر ؛ طلقة انذار .

أسلم نفسه لكل الوجوه التى مّرت على ذاكرته ؛ كثيرون دقّوا بأيديهم على خشب الشباك فى أواخر الليالى ، واستعطفوه :

– الموعد قرب .

أغنياء لم يبخلوا عليه ، وأصحاب سطوة وعدوه بالكثير . حول كل واحد رجال أقوياء ووجهاء يفتحون له باب السيارة ويفسحون الطريق أمامه . ينتظر بعض الرجال مع نوفل ، يحايلونه ويتوددون اليه ، ويثرثرون أمامه فى أسرارهم وأسرار رجلهم بلا تحفظ . بينهم كان يحس بالأمان .

يفرد القماش على الحائط خارج الدار فى الساحة الواسعة ، ويكتب اللافتات . هو فى المقدمة ؛ خطوة الى الأمام وخطوتان الى الخلف ، تعجبه الكتابة فيرجع أربع أو خمس خطوات ويهز رأسه ويصفر . هم خلفه ، الى الأمام والى الخلف ، يربّتون كتفيه ويناولونه السجائر :

– فنّان يا نوفل .

خلف الشبابيك نساء ، وعلى الأرصفة أطفال . على القماش كتب أجمل الكلام وعلّقه فى الهواء . يسهر ويصحو مع الفجر . أيامها كان فانوس يراه مشغولا فيزوغ منه ؛ يرفع يده بالسلام من بعيد ويواصل طريقه . **لم يسأل نفسه وقتها ؛ الى أين يمضى ؟**

هو لايتعب ولكن الرجال يتعبون بعضهم يدخل غرفة نوفل ليستريح ويشرب القهوة من يد الجارية .

وقتها لم يكن يعرف .

الآن انصرفوا . كانت ذيولهم تهتز هناك ، بعيدا . ركب عباس الخنزيرة ونزل من فوق الرصيف ، وقف فى وسط الشارع ويداه فى وسطه ، لعنهم بصوت عال : " كلاب " .

ساعة ويطلع الصباح ، تبرق العيون وتبرز كل الأسلحة من مكامنها ؛ مدرعات وهاونات وطائرات ورشاشات . يعزف راديو الحاجة ويكا لحن الصباح ويبتسم الجميع ، بينما يتلاحم السلاح الأبيض وتطير الشظايا : " ازززز" .

فكر : " سيأتى نوفل وحيدا كما ولدته امه ، سأقول له رأيتك وسطهم تهز ذيلك ، كمنت لك على الرصيف وعرفتك بينهم وأنت لم ترنى ، ومن قبل رأيتك بينهم فى الصحراء . الآن ، أراهنك وأراهن ويكا ، افتح فمك وسنرى ؛ أنياب كلب " .

ساق العربة فى مناورة بارعة . دورة الى اليمين واخرى الى اليسار ثم انطلاقة قوية وهو فارد ذراعيه والعجلات تجلجل على الأسفلت . ضحك : " ازززز " .

سمع صوت العجلات ففزع ؛ طلع الفجر .

رأى عربة الزبالة تبرز من تحت القوس الحجرى والكناسين ينظفون الارض بهمّة الصباح ، وسمع زقزقة جماعية على أسلاك الكهرباء . قام ، أطفأ المصباح . كان متعبا وعيناه خابيتان : " لم انم ، انتظرت بدون فائدة . ربما سافر " . تذكر ايضا انه لم يأكل طوال الليل وخمّن أنه سيجوع قبل ان تفرغ الحاجة ويكا من إفطارها . كانت الإوزة تتمطى على ملامح وجهه وتقلّب منقارها على جبينه . عاتبه فى سرّه : " آه منك يا فانوس ؛ ضيّعت ليلتى ، والآن لا أستطيع أن أنام " .

المخبولة ايضا انتبهت على جلجلة العربة وحفيف أجنحة الملائكة على الاسفلت :

– وعليكم السلام يا أهل الله ، رشّوا الساحة بالماء وعلّقوا الزينة.

ونادت على الشاخصين فى العتمة خلف غبار الشبابيك العالية

المقفلة:

- يا أولاد ، سنّدوا أخاكم وأجلسوه على الكرسى

أززز ... تعبان . الجسد ثقيل والصوت مشروخ ، والعين تدمــع من السهر والسكر . فكّر : " كلام الحاجــة ويكـا طـيّر النـوم مـن رأسى، آه لو كانت تخدعنـى . لـو صدقت سـأقول لهـــا : الدخلـــة بعــد أسبوع ".

دحرج أحجار الطريق بقدميه وجاهد وهو يفتح عينيه المتعبتين بالسهر . فكّر : " آه لو وجدتها " . وحين مرّ بضريح الشيخ فرغلى قرأ له الفاتحة ولعن الجارية فى سرّه ، وسأل نفسه : " ترى من أبوه ؟ " .

لم يكن نوفل قد انتهى من رصّ بضاعته حين برز له الأكتع. كان راديو الحاجة ويكا يذيع اللحن التمهيدى لبرنامج " لحن الصباح " . بنظرة واحدة كارهة أدرك كل منهما أن اللحظة الأخيرة تقترب . تلفّت نوفل ورأى اللافتة لاتزال فى مكانها . الرعشة فى يده والنبض الكهربائى فى شفتيه . واجهه :

– ابعد .

نوفل لم يدر كيف انزلقت الكلمة من فمه . الأكتع دب فيه الحماس فضحك وقال للناس :

– أخيرا الإوزة باضت ؛ نطق .

التفاتة أخرى . كأنه رأى الجارية تبحث عنه . هل عرفت ياترى ؟ لم تكن عنده فرصة ليتأكد ، كان الخطر يقترب . وقف وفرد طوله فى مواجهة الأكتع :

– لا تقترب .

– باضت يا حاجة ويكا ونطق ، أول مرّة يعملها .

حاول أن يهجم ؛ أن يهز كتفيه ويرقّص بطنه وينز مثل طـائرة ولكنه كان حزينا وطائرته بدون وقود . اكتفى بشقلباظ ثقيل وضحك وهو مستلق على ظهره :

– ازززز ....

وقف له . اخفى يده المرتعشة فـى جيبـه ، وفـرد اليسـرى فـى اتجاه وجه غريمه :

– ابعد ، قرد سكران .

كانت ترتعش ايضا .

– ازززز ... رأيتك بينهم فى الليـل ، عرفتـك وسطهم وقلـت : هوذا نوفل . اليوم سأقطع ذيلك وأخلع أنيابك .

ضربت الرعشة كل البدن . رجع خطوتيـن وأسـند ظهـره الـى الحائط حتى لاينفرط :

– قرد مقصوص الأطراف .

تلفّت ، لم يجد الجارية ، كأن الارض انشقّت وبلعتها .

– ازززز ... كلب .

هجم الاكتع عليه ، تشقلب وضربه بمؤخرته فى بطنه .

تلفّت لم يستطع بصـره أن يصـل الـى اللافتـة ، الارض خـلاء والافق بلا شمس ، عتمة .

اعتدل الأكتع، ضحك ورجع خطوتين. شقلباظ وضربة مماثلة.

ومضة ، وشبابيك تنفتح فى العتمة ، هل كانت الياقوتة ؟ احكم بالحق ، لاتظلمنى .

شقلباظ وضربة ثالثة .

انفرط على الرصيف ؛ عين جاحظة ونقطة دم على زاوية الفم.

ركبه وتنطط على صدره :

– بم برلم برلم ....

شدته الحاجه ويكا بيد ، وضربته باليد الاخرى على رأسه :

– انهض .

– الإوزة باضت ، لو سمعت لتعجبت ؛ شتمنى .

رفسته فى رأسه :

– انهض .

– تعالى الآن سأريك أنياب الكلب . بم برلم برلم ....

صرخت ؛ فقام وبين أسنانه بقايا ضحكة . هى لم تضحك ، انحنت تجس البدن المنفرط وتتأمل العينين . مسحت براحتها على الجفون فطاوعتها وانسدلت .

– مات .

اندهش الأكتع واصفرّ وجهه . لم يكن يظن أنه يحمل كل هذا اللؤم فى رأسه . لطم نفسه بيده ذات الأصبع الوحيدة ، وتأرجح

على اليتيه من الخوف :

- الكلب ، عملها !!

رقم الإيداع : ١١٦٣٨ / ٩٤
الترقيم الدولى : I. S .B.N. 977 5471 05 - 2